تأثير الحضارة الإسلامية في العالم الغربي

د/ مصطفى أكرور

أستاذ مساعد مكلف بالدروس بكلية العلوم الإسلامية

-جامعة الجزائر-

الحمد لله رب العالمين هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم وصلوات الله وسلامه على البشير النذير والسراج المنير الذي تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك خاسر.

وبعد فإنه لمن دواعي الغبطة والسرور أن أحظى بالمشاركة في أشغال الملتقى العلمي الخامس الذي تنظمه كلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر تحت عنوان " الإسلام والغرب تعايش أم تنافر".

وأود بهذه المناسبة الكريمة أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان إلى القائمين على أشغال هذا الملتقى المبارك وأخص بالذكر في هذا المقام سعادة عميد الكلية الذي أتاح لنا هذه الفرصة الثمينة لدراسة قضايا ذات اهتمام بالغ على مستوى الساحة العالمية في ظل المتغيرات الروحية والفكرية المعاصرة.

أسأله سبحانه وتعالى أن يجمع قلوبنا على محبته ومرضاته وأن يرزقنا الإخلاص فيما ندعو إليه والثبات على دينه إنه نعم المولى ونعم النصير.

موضوع مداخلتي في حدود المحور الأول المسطّر ضمن المحاور الأساسية للملتقى وجعلته بعنوان: " تأثير الحضارة الإسلامية في العالم الغربي ."

وإذا كان هذا العنوان يتطلب استقصاؤه ساعات كثيرة فإنني سأحاول بإذن الله تعالى أن أقتصر على النقاط التالية:

1- الإسلام رسالة عالمية - تربوية تهدف إلى سعادة الإنسان والإنسانية.

2 - تأثير الحضارة الإسلامية في العالم الغربي.

3 - أثر الإسلام الثقافي في المسيحية.

يقول رب العزة والجلال في محكم التنزيل: " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظّلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم: [1]

لقد بّوأنا الإسلام مركز الريادة في الحضارة الإنسانية علمًا وعملاً وأخلاقًا فجعل من الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس حيث أعطانا تصورًا شاملاً عن الحياة وطبيعتها وعن الوجود ومكانة الإنسان فيه وكان هدف الإسلام من إعطاء هذا التصور الشامل هو: - إيجاد أمة ذات طابع خاص تتميز به عن جميع الأمم. إن ارتباطنا بعقيدتنا وتراثنا ولغتنا يدفعنا لمواجهة الرّكب الحضاري بقوة العلم ويقظة الإيمان نتخيّر من الحضارة المعاصرة الجوانب العلمية والخبرات الفنية لنبني بذلك مجتمعنا بناء صحيحًا متكاملاً متميّزًا في مقوّماته، مستقلاّ في إرادته قوياّ في اقتصاده يسير بالحياة ويرقى بها نحو التطور والازدهار والتكامل.

لقد أصبح العلم دعامة المجتمع ومظهر من مظاهر قوته ولقد أثبت التراث العربي الإسلامي أن العرب يوم وحّدوا كلمتهم على يد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه استطاعوا بقوة ذلك الدفع العظيم، والدعم العلمي القويم الذي دعا إليه الإسلام أن يصبحوا أسياد العالم.

لقد كان تأثير الحضارة الإسلامية في العالم الغربي المسيحي كبيرًا خلال العصور الوسطى، إذ انتقلت كثير من المؤلفات العلمية من مختلف العلوم والفنون إلى أوربا وترجمت إلى اللغات اللاتينية مرات متعددة وكانت تدرس في المؤسسات

والمعاهد والجامعات ويعتمد عليها كمراجع أساسية ولذلك يعترف كثير من المستشرقين بعظمة الدور الذي قامت به الثقافة الإسلامية في إثراء الفكر الأوروبي لفترة طويلة من الزمن استمرت لقرون عديدة.

ومن المعروف والثابت تاريخيًا أنه في الوقت الذي كانت البلاد الإسلامية تمثّل المشعل الفكري الوضّاء الذي ينشر النور فيما حوله ويملأ الدنيا علما ومعرفة كانت أوربا تعيش في حالة من الجهل والتخلف والضياع والتمزق ولما أرادت أن ترفع عن كاهلها عبئ ذلك الوضع المهين التفتت إلى الحضارة الإسلامية تنهل من رحيق المعرفة والفكر ما أمكنها ذلك، ولذلك عكف علماؤها ورجال الدين فيها على دراسة الآثار العلمية التي كتبها المسلمون من أمثال ابن سينا والرازي وابن الهيثم والبيروني والخوارزمي والفارابي وابن رشد وغيرهم فكانت هذه المؤلفات تمثّل المنهل العذب الذي كان طلاّب المعرفة ينهلون منه، وإذا كانت الكاتبة الألمانية قد شهدت للعرب المسلمين بأنهم هم الذين حرّروا أوربا وعلموها وهذبوها وألفت في ذلك كتابها الجليل [**شمس العرب تسطع على الغرب**] (2).

المسلمون العرب كانوا أرقى شعوب أوربا حملوا إليها كل ألوان الحضارة والسعادة وكانت بلادهم الأوربية (الأندلس) أكثر المناطق حيوية وعلما وتقدما وازدهارا وشأنا في الدنيا كما أن العرب كانوا رواد الثقافة والأدب في الغرب وكانت لغتهم لغة العلم والحضارة.

ويعتقد علماء غربيون منصفون أن أوربا إنما وصلت إلى ما وصلت إليه من رقي فكري وتطور صاعد بفضل العرب في العصر الإسلامي الزاهر في القرون الوسطى، لقد بدأت سيطرة أوربا على العالم انطلاقًا من عصر النهضة [**القرن السادس عشر**] ويدفع العدل إلى أن أوربا مدينة للمسلمين العرب بالأسس التي قامت عليها نهضتها

المذكورة ومن هذه الأسس، مفهوم معتدل للحياة يستنكر المغالاة بالتقشف والإسراف بالزهد واحتقار الجسد إذ جاء في القرآن الكريم:

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك﴾.....[3]

﴿ قل مَنْ حرَّمَ زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرّزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ [4] **يقول الأستاذ (كريستوفر داو:**

" عن العرب أخذت التقاليد العلمية في أوربا الحديثة، وقد أسهم العرب في توسيع الأوروبيين توسيعًا لم يسبق له مثيل، إذ بفضلهم انتقلت إلى أوربا حضارات الصين والهند والفرس وبفضل العرب انتقلت علوم الشرق إلى أوربا لتكون شاهدة بما للإسلام من عظمة علمية تربوية وفضل على الإنسان والإنسانية" [5].

يقول العلامة الاجتماعي الدكتور جوستان لوبون في كتابه حضارة العرب:

" لا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ولو حينًا من الزمن"[6].

ويقول " لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخَّرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون".

هذا ما يقوله العلماء الاجتماعيون الأوروبيون الذين لا يصح اتهامهم بالمبالغة والإغراق في أمر لا تعود منه عليهم ولا على أقوامهم أية مفخرة، ونحن إذ نشير هذه الأقوال فإنّما لندلل على أن الإسلام روحًا يبعث الأفراد والجماعات إلى الارتقاء لا يوجد ما يشبهها في التعاليم البشرية وهي من أقوى الأدلة على أن الإسلام وحي إلهي لا من صنع البشر.

وإذا كان حال العالم الغربي اليوم يتميز بطابع خاص هو جهله بحقيقة الإسلام وسبب ذلك: تلك الحملة الباطلة التي قام بها أعداؤه لتشويهه أمام أقوامهم والتي فيها من الافتراء على التاريخ والكذب الشيء الكثير وذلك بما نشروه من كتب ورسائل وقصائد تخدم غرضهم، يقول الكونت هنري ذي كاستري في كتابه " الإسلام خواطر وسوانح" ....لست أدري ما الذي يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتي من أغاني القوّال من المسحيين، فجميع أغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر صادرة عن فكر واحد كان السبب في الحروب الصليبية وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل الكلي بديانتهم، وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد الدين ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان ولا يزال بعضها راسخًا إلى هذه الأيام فكلّ ناشدٍ كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين....."[7].

ويقول الأستاذ " دير منجم" حينما اشتعلت الحرب بين الإسلام والمسيحية ودامت عدة قرون اشتد النفور بين الفريقين وأساء كل منهما فهم الآخر ولكن يجب الإعتراف: بأن إساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين، وفي الواقع أنه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة التي أرهق فيها الجدليون البيزانتيون الإسلام وإحتقارات بمساوئ دون أن يتعبوا أنفسهم في دراسته، هب الكتاب والشعراء المرتزقة وأخذوا يهاجمون العرب فلم تكن مهاجمتهم إياها إلا تهما باطلة بل متناقضة"[8].

والدراسة الجدية لتعاليم الإسلام والبحث الدقيق النزيه في أسراره ومزاياه لم يبدأ إلاّ منذ القرن التاسع عشر حين انتشرت الثقافة الشرقية في أوربا وأخذ

المستشرقون يجدون في كشف الثقافة الإسلامية وكان من وراء ذلك أن افترق الناس في القرآن إلى معجب به وطاعن فيه لغرض في نفسه.

ولا ريب في أن الإسلام اليوم بحاجة إلى بيان مزاياه وفضائله أمام العالم المتمدن ودحض المعتقدات السيئة التي ألصقت به وإظهار حقيقة ما قدمه من علاج لأزمات الإنسانية المستعصية.

وفي العالم اليوم من يبحث عن العلاج الناجع مهما كان مصدره للخلاص من المشاكل التي تنتاب الإنسانية، والإسلام هو خير علاج لها.

وإذا كان الدين واحدًا لا يجوز الاختلاف فيه فهذا الخلاف الذي حصل من أتباع الأديان: المسيحية واليهودية والإسلامية من افتراق كل طائفة إلى فرق وحصول العداوة بينهم هو مخالف لتعاليم الله الذي ما أنزل الله الأديان إلاّ لتكون سلامًا على الأرض، ومحبة بين الأفراد والأمم ولهذا كانت رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام التوفيق بين المتخالفين ببيان الحق الذي حادوا عنه والتحذير من الاختلاف ولهذا يقول تعالى مخاطبًا أتباع محمد: ﴿شرع لكم من الدّين ما وصّى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدّين ولا تتفرقوا فيه﴾ (9) فوحدة الدين حقيقة أعلنها القرآن وهي تدحض شبهات الذين ينكرون الأديان بسبب اختلافها في جوهرها وأصولها فادعاؤهم، بأن كل نبي يأتي من عنده بدين يناقض سابقيه قول لا يمتّ إلى حقيقة الأديان بصلة فالدّين واحد في أصوله – في نظر القرآن – ولكن الأديان تختلف في تشريعتها لاختلاف أحوال الأمم الاجتماعية ودرجة استعدادها العقلي، ولقد ختم الله الأديان بالدّين الإسلامي وأعطى محمدًا شريعة تنسخ

ما قبلها من الشرائع مظهرًا فيه كنه الدين الحق وهذه الشريعة توافق ما اقتضاه التطور العقلي للإنسان وتصلح لكل زمان ومكان.

." وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرّقَ بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون[10].

لقد اختار الله نبيه إلى جواره بعد أن أنشأ أمة مثالية ونشر دين الحق في العالم كله وبدأ ميلاد الحضارة الإسلامية بعد ميلاد الإسلام بقليل وذلك حينما استقر الرسول صلوات الله وسلامه عليه في المدينة المنورة وأخذ الاستقرار الروحي والأدبي والفكري والاجتماعي ينتشر في جزيرة العرب ثم جاء الخلفاء وملوك المسلمين الأوائل فتعهدوا هذا الغرس حتى نما وازدهر وأثمر وتعددت مراكز الحضارة الإسلامية في العالم الإسلامي وهذا هو التاريخ شاهد صدق على مدى ما بلغته دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وسواها من مدنية، ولقد تألقت أضواء الحضارة الإسلامية في شتى أرجاء العالم المعروف آنذاك وانتقلت من الشرق إلى الغرب عن طريق صقلية والأندلس وباختلاط الأوربيين والشرقيين في الحروب الصليبية وسواها، وصحيح أن الحضارة الإسلامية اقتبست ونقلت عن حضارات الهند والصين وإيران والآشوريين والبابليين والفينقيين والإغريق والرومان وسواها ولكنها بجانب ذلك جدّدت وابتكرت فكان الشرق بحق أستاذًا إبان العصور السالفة مما شهد به الفلاسفة والمفكرون في الغرب وسجله في فخر وتقدير وإذا كان لكل حضارة مبادئ وأهداف تقوم عليها ولأجلها فإن الحضارة الإسلامية تقوم على مبادئ خالدة لم يصل إليها العقل البشري من قبل لأنها امتاز بمميزات لم تجتمع لحضارة أخرى من بينها:

1 – أنها جمعت ما أنتجته الأمم السابقة والمعاصرة في ذلك الحين من الصين والهند وفارس واليونان كما ذكرنا قبل قليل جمع المسلمون ذلك كله ودرسوه وزادوا عليه ليسلّموه بعد ذلك للأمم اللاحقة ناضجًا.

2 - أنها كانت حضارة أخلاقية فلا سيطرة للمادة على الروح ولا سيطرة للروح على المادة تسير حسب قانون دقيق تمشيا مع الأثر الذي يقول: ﴿ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا ﴾ ولذلك عمل الإنسان المسلم حسب هذا القانون للدنيا وللآخرة أي للمادة والروح معًا في خطين متوازيين لا يستطيع أحدهما أن يطغى على الآخر.

3 - أنها كانت حضارة إنسانية صادقة وليست عنصرية ولا عرقية وآية ذلك من أمرين:

أ - أن المسلمين اعترفوا لكل عالم من علماء الدنيا بفضله فلم يجحدوا فضل واحد منهم ولا نسبوا لأنفسهم شيئا مما ابتكر غيرهم ولا حاولوا إخفاء ما ابتكر السابقون من الأمم بل عرفوا لكل ذي فضل فضله، فأبو نصر الفارابي يعرض آراءه في كتاب الملة، ثم يقول: " وهذه في كتاب بوليطقي وهو كتاب السياسة لأرسطو طاليس، وهو في كتاب السياسة لأفلاطون وفي كتب أفلاطون وغيره[12].

ب - أنهم لم يخفوا علومهم عن أحد من أبناء البشرية فكم من عالم أوروبي درس في المدارس الإسلامية في قرطبة مثلاً أو في غيرها وكم من مسيحي أو يهودي تعلم في مدارس المسلمين، فلما بلغ درجة العلماء احتضنته الدولة واعترف الكل بفضله وعلمه.

4 - أنها حضارة مدنية توفر السلام والرخاء وهذا بدليل ما بين أيدينا من تراث فقد التفت المسلمون إلى اللغة والآداب فتدارسوها وبحثوا في قواعدها وقواعد

بلاغتها وكتبوا التراجم الطوال للأدباء والبلغاء والتفتوا إلى أخبار الطب والأطباء والمؤرخين والجغرافيين والموسيقيين فكتبوا أمثال:" طبقات الأطباء" و"أعلام التاريخ والجغرافيا"، و"الأغاني" ذلك الكتاب الذي لم يترك صاحبه مجالا لكاتب بعده في موضوعه التفتوا إلى الديانات والمذاهب فكتبوا الملل والنحل فأكثروا وكتبوا في السياسة والإدارة والأحكام والاقتصاد وما إلى ذلك.

لقد انتج المسلمون حضارة راقية جعلت المؤرخ الكبير جورج سارتون - يسميها " المعجزة العربية" وأن يقول " إن ما حققه العرب في مجال العلوم يكاد لا يصدق"[13].

الحضارة في الحقيقة هي جزء من تراث الأمم والشعوب وهي زاد من مدخرات الدول ورصيدها القومي وهي الشعلة الوهاجة التي تضيء للأمم طريقها نحو الازدهار والرخاء والسلام فلا مفر إذن من العمل على السير بها نحو المستقبل الذي نبحث عنه والغاية التي ننشدها ومن الواجب أن تزدهر الحضارة يوما بعد يوم وأن يكون حاضرها خيرا من ماضيها وأن يكون مستقبلها أفضل من حاضرها.

لقد تغيرت الأمور كثيرًا عن ذي قبل وكان تغيّرها إلى الأسوأ لا إلى الأحسن وإلى الوراء لا إلى الأمام في التعليم وفي الصناعة والتكنولوجيا وفي الآداب والفكر إلى غيرها ولم نعد مثل عباقرة الأمس في كل مجال قد يكون السبب في ذلك السرعة التي يؤمن بفلسفتها اليوم عصرنا الحضاري وقد يكون السبب يكمن في فقدان المعنويات والروحيات والمثل من عالمنا الحضاري وقد يكون السبب هو في فقدان الإنسان لحريته وكيانه وشخصيته أمام جبروت الآلة والتكنولوجيا الحديثة وغزو الفضاء، وقد يكون غير ذلك من الأسباب. أعتقد أن جيل اليوم من الضروري أن يكون أحسن من جيل الأمس وأن جيل الغد يجب أن يكون أفضل من جيل اليوم

ولكن الأمر على العكس من ذلك تماما ومعنى ذلك أن الميزان أصبح مقلوبًا وأننا سوف نعيش عصرًا مقبلاً نرى فيه فناء الحضارة واندثارها أو عودة إلى حضارة أخرى ذات قيم ومعنويات ولا أراها إلاّ حضارة الإسلام.

هل لا بد أن تكون حياتنا دائما مهددة بانقراض كل ما بنته الإنسانية لنا من قبل، من مثل وقيم رفيعة طيلة العصور والأجيال قيام حضارة جديدة اليوم أمر أصبح مفروضًا، أصبح شبه قريب بعد أن شاخت حضارة أوربا.

لا بد إذن من أن يضئ آفاق الحياة البشرية نور جديد، وليس هذا النور سوى أضواء حضارة الإسلام فالرجوع إليها أمر حتمي لا بد منه.

وهذا مصداقا لقوله تعالى: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"[14].

لقد قدم المسلمون للفكر الإنساني وللبشرية جميعًا كل وسائل التقدم وأسباب الرخاء والازدهار وعوامل النهضة في شتى جوانب الحياة في الطب والهندسة والرياضة والفلك والفلسفة والصناعة والزراعة والكيمياء وشتى جوانب المعرفة والثقافة والعلوم والآداب، وإذا كانت حضارة الغرب هي السائدة اليوم فإن حضارة الإسلام بالأمس كانت هي الرائدة والساعية إلى كل خير وازدهار الإسلام ورخاء للعالم، وقد نشأت أول ما نشأت في منطقة الشرق الأوسط بيئة الحضارات: العربية والمصرية والسبئية والأشورية والبابلية والفينيقية وغيرها وكانت منطقة الشرق الأوسط على صلة بحضارات الهند والصين وفارس والروم[15].

وإذا كانت المواليد الحضارية في المنطقة قد انقطعت فإنها لم تفقد طاقتها الإبداعية التي ظهرت في أجلى مظاهرها في انبعاث الحضارة الإسلامية وهي أروع حضارة نادت العالم وهزته هزًا عميقًا حقبة طويلة من الزّمن.

يتصور البعض أنه في عصر الذرة والفضاء واقتحام الكواكب وعلم الأنترنيت لم يعد هناك مكان للدين ولا للشرائع والكتب السماوية المنزلة وإن ذلك من أعظم تحديات العصر للإسلام وكأن الحضارة البشرية والعقل الإنساني في زعمهم عدوّان لا يتصافحان.

ويحلو لبعض الواهمين أن يزداد عنادًا واستكبارًا وأن يتصور الإسلام مرادفًا لشعائر البداوة وأنه يمثلها كما يمثلها جمل الصحراء سواء بسواء.

وكأنه يتصور أن نزول القرآن الكريم كان يجب أن يصحبه اختراع الإنسان للطائرة والذرة وأن الأمة التي نزل عليها هذا الدِّين كان يجب أن تسمو فوق كل المؤثرات والعوامل فتأتي بكل شيء في أقصر وقت وتهتدي إلى جميع أسرار الكون والوجود في أقل زمن.

أولا نرى التشابه مطبقًا بين ما يذهب إليه البعض من بيننا في القرن العشرين وبين ما قاله إنسان البادية لرسول الله صلى الله عليه وسلم في عصر نزول القرآن الكريم:

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتابًا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلّا بشرًا رسولاً ﴾ (16).

وينسى هؤلاء أن الإسلام بعد نزوله بقليل صنع أمة لم يشهد مثلها التاريخ من قبل وصنع حضارة لم تر الإنسانية لها من قبل ولا من بعد مثيلاً، ونشر العلم والمعرفة والنور في كل مكان حلّ فيه وحرّر الإنسان من ظلمات العصور الوسطى ومنحه كل حقوقه التي أكدها القرآن في جميع سوره وآياته.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود:" إن المسلمين بتخلفهم هذا في العلم بسنن الله الكونية إنما ينحرفون عن الخط الإسلامي الصريح وينحرفون عن خدمة الوطن فهم بهذا التخلف أثمون دينيّا وآثمون وطنيّا، وهذا المنهج الذي نهض بأوربا هو منهج إسلامي وضع المسلمون متابعين للتوجيه الإلهي - مبادئه وأرسوا قواعده وجاء الغربيون فتتلمذوا على المسلمين فيه وساروا على قواعده فكانت الحضارة الأوربية التي أسّس المنهج التجريبي فيها "روجي بيكون" من أين استفاد روجيه بيكون منهجه.

يقول الكاتب الانجليزي الأستاذ "بريفولت" في كتابه النفيس بناء الانسانية

يقول: "لقد كان العلم أهم ماجادت به الحضارة العربية إلى العالم الثالث" ويقول في مكان آخر من كتابه.

" ولم يكن أيضًا العلم العربي وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة بل إن مؤثرات كثيرة من الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشِعّتها إلى الحياة الأوربية...."[17]

إن الإسلام تراث روحي وفكري للإنسانية كلها رسالته دائما التبشير بقيم إنسانية رفيعة نادى بالحرية لكل الناس ولكل الشعوب ولذلك يبني [كانت] مذهبه في الأخلاق على أن حسن النية هو الأساس الأول في الأخلاق ولعلنا نتذكر قول رسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...."[18].

وإذا كانت دعامة الحضارة الغربية اليوم هو المنهج التجريبي الذي أخذ به "فرنسيس بيكون" فإن هذا المنهج إسلامي محض قرّره النظّام والجاحظ والغزالي منهجا للفكر الإسلامي وإذا كان بيكون في كتابه (الأداة الجديدة) الذي ألفه عام 1620 م قد قرر المنهج العلمي التجريبي فإن القرآن هو الذي أرسى دعائم هذا المنهج بما دعا إليه من التأمل والتفكير وترك الأوهام والتقليد وهذا المنهج القرآني

الرفيع هو الذي يجب أن ترتكز عليه ثقافة المسلم اليومي حتى يفكر بالعقلية العلمية الصحيحة[19].

إن تاريخ الفكر والمفكرين مرتبط بتاريخ الإنسانية منذ وجودها تحدثت الأديان القديمة عن العقل وبحث في هذا الموضوع قدماء الفلاسفة من إغريق وسواهم وظهر في المسلمين كثير من الفلاسفة كابن رشد والفارابي وغيرهما كما أن هناك كثيرا من العلماء والمفكرين الذين قدموا للإنسانية على مدى تاريخها المديد كثيرا من الاختراعات والمكتشفات التي سعدت بها البشرية وأسهمت إسهاما فعالا في الحضارة والتقدم والازدهار وإن ما نشاهده اليوم من تقدم ورقي في المجالات الفضائية والعلمية لهو نتيجة لتلك الجهود الجبارة والأفكار المبدعة التي هي بلا شك استمرار لأفكار أقوام سابقين ربما بدأت بمحض الصدفة ثم اتخذت شكلا فكريا منظما قام على قواعد دقيقة ونظريات سليمة أثبتت الأيام صدقها وصوابها ومن ثم قدمت للأسرة البشرية الكبرى خدمات لا تنكر في مجالات مختلفة فتحت لها آفاق المستقبل الزاهر والأمل المرتجى والسعادة المرتقبة ولا اعتقد أن هناك أحدا يجادل في قيمة العقل ودور المفكر في نهضة أمته ومن ثم العالم بأسره.

كما لا أعتقد أن هناك أحدا ينازع في أن التقدم التكنولوجي والرقي الحضاري والإنماء الاقتصادي والتوسع العمراني والتكيف الاجتماعي المزدهر في العصر الحديث كل ذلك حصيلة حتمية لجهود المفكرين والعلماء من المسلمين وغيرهم.

وعليه فدور العلماء اليوم دور ذو أهمية كبرى خاصة في الوقت الراهن لاستعادة مكانتهم الحقيقية بين أمم العالم كما كانت في عهدها الزاهر.

وقد قدم المفكرون الإسلاميون في الماضي لأمتهم الإسلامية وللبشرية جمعاء جلائل الأعمال وأعظم المكتشفات والمخترعات التي ساعدت على ازدهار

المجتمعات الإنسانية في كل من ميادين التشريع والاقتصاد والصناعة والطب والعلوم والفلسفة وغيرها مما يطول ذكره لو تعرضنا لذكر الأسماء ومما لا شك فيه أن النهضة الحديثة في المغرب هي نتيجة لتلك الجهود الفكرية الإسلامية وليست نهضة أوربا التي تحققت في عهد إحياء العلوم ونقلت الإنسانية من العصر الوسيط إلى العصر الحديث إلا امتدادا لنهضتها الأولى التي استمدت مقوماتها من علوم العرب وآدابهم وفنونهم خلال القرن الثاني عشر.[20]

يقول المستشرق الإيطالي "فرانشيسكو: " لم تكن قرطبة وحدها خلال أيامها الزاهرة في القرن العاشر مركزا هاما للثقافة العربية الأندلسية ولكن طليطلة وإشبيليا وغرناطة وبلدان ريفية أخرى كانت كذلك مراكز كبرى لهذه الثقافة بل لقد ظل بعضها على تلك الحال حتى بعد أن استردها المسيحيون....ولم يكن للنشاط الفكري والروحي يومها في تلك الآونة الخصبة التي امتدت في القرن الثالث عشر أية حدود سياسية أو دينية بل ظل فخرا للحضارة العربية وما نما من قبساتها في التربة الأوربية[21] هذه شهادة أوروبي للفكر الإسلامي وللحضارة العربية الإسلامية بالتأثير على الفكر الأوروبي إبان نهضته وإذا كان المسلمون قد أصيبوا بنكسات وانحطاط فيما بعد فالعيب ليس عيب الإسلام ولكنه عيب المسلمين أنفسهم [إن الله لا يغيّرما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم"[22].

أقول بأن مدنية المسلمين سبقت فابتكرت الكثير والكثير في العلوم والفنون والآداب وعاش عليها العالم وسكن في ظلها عصورا طويلة أما مدنية الغرب فأخذت عن الإسلام المنهج والتطبيق والكثير من الأصول والفروع وغزت الفكر والآفاق في سرعة وتجرد من كل القيم الروحية وجحود لكل ما يمتّ إلى الدين بصلة وأرهقت الأمم والشعوب والجماعات والأفراد إرهاقا شديدا مؤمنة في مسيرتها بفلسفة القوة، والتفرقة العنصرية وبأن الغاية تبرر الوسيلة وبأن الشعب الأوروبي هو سيد الشعوب ومالك زمام العالم وحضارته وقسّمت البشر إلى طبقات ومنازل ووضعت العرب والمسلمين في آخر الدرجات نحن

والغرب، شعوب الإسلام وشعوب أوربا فرسا رهان يسيران معا في مضمار الحياة والمدنية ويعملان من أجل سعادة العالم ورخائه، سبقنا حينا ثم سبقنا الغرب وما زال يسبقنا بزمن طويل لكن ليس معنى ذلك أن تستمر المسيرة إلى غد وإلى ما بعد غد كما تسير اليوم فقد يكبو الجواد السابق وقد يسبق الجواد المتأخر الهزيل ولله في خلقه شؤون ولا ريب أن العالم يسير رويدًا رويدًا إلى مدنية الإسلام وحضارته والمستقبل كفيل بالبرهان على ذلك وصدق الله حيث يقول: " فأما الزبد فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض....."[23].

الهوامش

1- المائدة: 15 – 16.

2 – راجع: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية أمحمد علي الملا: دار الفكر

3 – القصص: 77.

4 – الأعراف: 31 – 32.

5 – راجع مقال للدكتور أنور حاتم – أستاذ بجامعة فربيورخ في سويسرا عن المجلة العربية الرياض العدد الافتتاحي الأول أب 1975ص : 135.

6 – نقلا عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ص 585 – 591.

7 – نقلا عن ترجمة العربية للأستاذ أحمد فتحي زغلول ص 07.

8 – راجع كتاب: حياة محمد لإميل دير منجم ص: 135.طبعة باريس 1929م.

9 – الشورى: 13

10- الأنعام: 154.

11 – انظر: روح الحضارة العربية ترجمة الدكتور عبد الرحمان بدوي بيروت 1949.

12 – الملة: ص 72 وانظر: تاريخ العلم والإنسية الجديدة، جورج سارتون ترجمة وتقديم إسماعيل مظهر ص 157 – القاهرة 1961.

13 – العرب والعلم ص 85. وراجع الإسلام والحضارة العربية ص 171.

14- فصلت: .53

15- راجع: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية أ – أحمد علي الملا ص 115، دار الفكر.

16 –سورة الإسراء 90-93

17 – انظر في ذلك كتاب: بناء الإنسانية الكاتب الإنجليزي بريفولت وفضل الحضارة العربية الإسلامية على العالم أ – زكريا هاشم ص: 406.

18 – رواه البخاري في صحيحه في الإيمان ومسلم في الإمارة باب: قوله صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات: رقم .1907

19 – ينظر: تاريخ العلم جورج سارتون ص: 22 القاهرة .1957

20- رحلة الأدب العربي إلى أوربا – لمحمد مفيد ص: .21

21 – راجع: كتابه: العرب الطبعة الفرنسية ص .172

22 – سورة الرعد: .12

23 – سورة الرعد: 19.

انظر: شروط النهضة ومشكلات الحضارة، مالك بن نبي ص: 46 ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي، القاهرة 1957م.